خانقين في توجهه للسَّماع بتلك البلاد، ثم حمل إلى بغداد، فتوفي بها، ودُفِنَ بالجانبَ الغَرْبي منها بمقبرة الشُّونيزية، رحمه الله، ومولده في ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمس مئة.

قال: أنشدنا الخُشُوعي، أنشدنا ابنُ الأَكْفاني في المَرْوَحة:

ومَـرْوَحَـةٍ تـروِّحُ كـلَّ هَـمٍّ ثـلاثـةَ أَشْـهُـرٍ لابُـدَّ مـنـهـا

حـزيـرانٍ وتـمُّـوزٍ وآبٍ وفي أيلولَ يغني اللهُ عنها][1]

ثم دخلت سنة سبع عشرة وست مئة

ففيها نافقَ الأميرُ عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف، وعاث في أرض سِنْجار، وساعده صاحِبُ ماردين، فسار إليه الأشرف، فدخل ابنُ المَشْطُوب إلى تل أعفر، فأنزله بدر الدين لؤلؤ صاحب المَوْصِل بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثم قَيَّده، وبعثَ به إلى الأشرف، فألقاه الحاجبُ عليّ في الجُبِّ، فماتَ بالقَمْل والجوع[2].

وكان نورُ الدِّين بن عماد الدين صاحب قَرْقِيسيا مع الأشرف، فكاتَبَ عليه، واتفق مع ابنِ المَشْطوب، فاعتقله الأشرف، وبَعَثَ به مع العَلَم قيصر المعروف ١٢٢

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ع) و(س)، وفي الأصل: وفيها يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى توفي الحافظ عماد الدين أبو القاسم علي بن عساكر، وقد تقدم ذكر وفاته، وقال: إنه مات يوم السبت ثالث جمادى الآخرة، وقال الحافظ: أنشدنا الخشوعي، أنشدنا ابن الأكفاني في المروحة:

ومـروحـة تـروِّح كـل هـم ثـلاثـة أشـهـر لابـد مـنـهـا

حـزيـران وتـمـوز وآب وفي أيـلـول يـغـني الـلـه عـنـهـا

قلت: وهذه الزيادة ليست في (ب)، ويبدو أن أبا شامة أعاد ترجمته في جزازة طيارة، واختصرها ناسخ الأصل، والله أعلم. وانظر ص ٣٢٣ من هذا الجزء.

(٢) كانت وفاته سنة (٦١٩ هـ)، انظر ترجمته في الكامل لابن الأثير: ١٢/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣، وفيات الأعيان: ١/ ١٨٠ ـ ١٨٢، مفرج الكروب: ٤/ ٧١ ـ ٧٢، الوافي بالوفيات: ٧/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

بتعاسيف إلى قَرْقيسيا وعانة، فَعَلَّق نورَ الدين برجليه تحت القلعتين وعَذَّبه، فَسُلِّمت إلى تعاسيف جميعُ بلاده، وأراد الأشرف أن يرميه في الجُبِّ، فتشَفَّع إلى أخيه الملك المعظم، فَشَفَّع فيه، فأطلقه الأشرف، وسار نورُ الدِّين إلى دمشق، وأحسنَ المعظَّمُ إليه، فاشترى بُسْتان ابن حَيُّوس بنواحي العُقَيبة، وبنى فيه، وأقام به.

وفيها قَتَلَ صاحبُ سِنْجار أخاه، فسار الأشرفُ إليها، فأخذها، وعوَّضَ صاحِبَها الرَّقَّة.

وفيها في رجب كانت وقعة البُرلس بين الكامل والفرنج، وكانت وقعةً عظيمة، قَتَلَ الكامِلُ منهم عشرة آلاف، وغَنِمَ خيولَهم وسلاحَهُمْ، ورَجَعوا إلى دِمْياط مهزومين.

وفيها عَزَلَ المعظَّم المبارز المعتمد عن ولاية دمشق، وولَّى الغرز[1] خليلاً.

وحَجَّ المعتمد بالنَّاس من الشَّام في هذه السنة. ولم يحجَّ أحدٌ من العَجَم بسبب خروج التَّاتار في البلاد. وحَجَّ من بغداد أقباش النَّاصري، وقُتِلَ بمكة، وعاد حاجُّ العراق على طريق الشَّام.

واستفحل أمر التَّاتار في هذه السنة.

ومات فيها خوارزم شاه محمد بن تُكُش، وقد ذكرنا صفةَ موته وما تَمَّ له مع التَّاتار في هذه السنة وقبلها في الكتاب الذي اختصرت فيه سيرة الدَّوْلتين العلائية والجلالية[2].

وذكر أبو المُظَفَّر سِبْط ابن الجوزي: أنه توفي في سنة خمس عشرة، وَوَهِمَ في ذلك[3]، وقال: قَصَدَ العراق في أربع مئة ألف، ووصل إلى هَمَذَان يريد

(١) ويرسم كذلك الغرس، انظر ص ١٣٧ من الجزء الثاني.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٩ من هذا الجزء.

(٣) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، وانظر ترجمته في الكامل: ١٢/ ٣٥٨، وسير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٣٩ ـ ١٤٣.

بغداد، وقيل: كان معه ست مئة جَتْر[١]، تحتَ كلِّ جَتْر ألف، وكان قد أفنى ملوك خُرَاسان وما وراء النهر، وقَتَلَ صاحِبَ سمرقند، وكان حسنَ الصُّورة، وأخلى البلادَ من الملوك واستقلَّ بها، وكان ذلك سبباً لهلاكه[٢].

وقال: ولما نزل هَمَذَان كان في عسكره سبعون ألفاً من الخطا، فكاتَبَ القُمِّي - يعني وزير بغداد - عساكِرَه، ووعدَهم بالبلاد، فاتَّفقوا مع الخطا على قَتْله، وبعثَ القُمِّيُّ إليهم بالأموال والخيول والخِلَع سِرًّا، فكان ذلك سبباً لوَهْنه. ولما عَلِمَ خوارزم شاه بذلك سار من هَمَذَان طالباً خراسان، فنزل مرو، والتقى في طريقه الخيلَ والخِلَع والكُتُبَ المنفَّذة إلى الخطا، فلم يمكنه الرجوع لفساد عسكره، وكان خاله من الخطا، وقد حلَّفوه أن لا يطلعه على ما دَبَّروا عليه، فجاء إليه في الليل، وكتَبَ في يده صورة الحال، ووقف بإزائه، فنظر إلى السطور وفهمها، وهو يقول: خُذْ لنفسك، فالسَّاعة تقتل. فقام، وخرج من تحت ذيل الشُّقَّة، ومعه ولداه جلال الدين وآخر، فركب، وسار بهما. ولمَّا خرج من الخيمة دَخَلَ الخطا والعساكِرُ من بابها ظنّاً منهم أنه فيها، فلم يجدوه، فنهبوا الخزائن والخيول والجواري، فيقال: إنه كان في خزانته عشرةُ آلاف ألف دينار؛ وألفُ حِمْل قُماش أطلس وغيره، وعشرون ألف فَرَسٍ وبغل، وكان له عشرةُ آلاف مملوك مثل الملوك، فتمزَّق الجميع ونُهِبَ. وأما خوارزم شاه فَهَرَبَ إلى البحر، وركب في مركب صغير إلى جزيرة، وبها قلعةٌ ليتحصَّن بها، فأدركه الموتُ دون صعود القلعة، فدفنوه على ساحل البحر، وهرب ولدُهُ جلالُ الدين وأخوه إلى الهند، وجاء الخطا، فَدُلُّوا عليه، فنَبَشُوه، وقَطَعوا رأسه، وأخذوه وعادوا، وتفرَّقَتِ الممالكُ بعده، وأُخذتِ البلاد[٣].

---

(١) الجتر في الأصل: قبة على هيئة خيمة على رأس عمود كالمظلة تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه، ويبدو أنها هنا تحمل على رأس القواد الذين يقودون ألفاً من الجنود، والله أعلم، انظر «صبح الأعشى»: ٣/ ٤٦٩.

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ).

(٣) المصدر السالف.

وفيها توفي الملك الفائز سابق الدِّين إبراهيم بن العادل أبي بكر بن أيوب[١]، وكان قد حالف ابنَ المشطوب[٢] والأمراء بمصر على الكامل لما
١٢٣ مَلَكَ الفرنج دمياط، ولولا أخوهما المُعَظَّم يمسك ابنَ المَشْطُوب، وينفيه إلى الشَّرْق ـ على ما سَبَقَ ذِكْرُه ـ لتمَّ لهم ما أرادوا.

ولمَّا كانت وقعة البرلس، قال الكامل للفائز: هؤلاء الفرنج قد استولوا على البلاد، وقد أبطأ علينا الملك المُعَظَّم، وما لملوك الشرق غيرك، فَقُمْ وتوجَّه إلى الأشرف، وَعَرِّفْه ما نحن فيه من الضَّائقة. فسار إلى الشرق، وكان الأشرف على المَوْصِل، فَمَرِضَ الفائز بين سِنْجار والمَوْصِل. وقيل: إنه سُمَّ، فماتَ، فرَدُّوه إلى سِنْجار، فدُفِنَ عند تُرْبة عماد الدين زَنْكي رحمه الله[٣]. قيل: إنه ماتَ في شعبان من السنة[٣].

وفيها توفي أبو عزيز قَتَادة بن إدريس، أمير مكَّة، الشَّريف العلوي الحسني الزَّيدي[٤].

كان عادلاً مُنْصِفاً، نِقْمَةً على عبيد مكَّة والمفسدين، والحاجُّ في أيامه

(١) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ٢٩ ـ ٣٠، تاريخ الإسلام (ت ٤٣٦، وفيات سنة ٦١٧ هـ)، الوافي بالوفيات: ٦/ ١٢٥، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، المقفى للمقريزي: ١/ ١١٨، شفاء القلوب: ٢٧٥، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٤٩، ترويح القلوب: ٥٠، ٥٦، وكان أسن أولاد أبيه كما قال المقريزي.

(٢) يعني عماد الدين ابنَ المشطوب، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٢٧ من هذا الجزء.

(٣ ـ ٣) ما بينهما ليس في الأصل، وهو في بقية النسخ.

(٤) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٤، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ١٧، مفرج الكروب: ٤/ ١٢١ ـ ١٢٣، تاريخ الإسلام (ت ٤٧٢، وفيات سنة ٦١٧ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠، العبر للذهبي: ٥/ ٦٩، الوافي بالوفيات: ٢٤/ ١٩٣، العقد الثمين: ٧/ ٣٩ ـ ٦١، شفاء الغرام: ٢/ ١٩٨ ـ ١٩٩، السلوك للمقريزي: ج١/ ق١/ ٢٤٢، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠، شذرات الذهب: ٥/ ٧٦.
وفي «الكامل» و«مفرج الكروب» وفاته سنة (٦١٨ هـ)، وضعفها المنذري.

مطمئنون آمنون على أنفسهم وأموالهم، وكان شيخاً مهيباً طُوالاً، وما كان يلتفتُ إلى أحدٍ من خَلْقِ الله، ولا وطئَ بساط الخليفة ولا غيره، وكان يُحمل إليه في كلِّ سنة من بغداد الخِلَعُ والذَّهب وهو في داره بمكة، وكان يقول: أنا أحقُّ بالخلافة. ولم يرتكب كبيرةً على ما قيل، وكان في زمانه يُؤَذَّن في الحَرَم بحيّ على خير العَمَل، على مذهب الزَّيْدية. وكتبَ إليه الخليفةُ يستدعيه، ويقول: أنت ابنُ العَمِّ والصَّاحب، وقد بلغني شهامتك، وحِفْظُك للحاجّ، وعَدْلُك وشَرَفُ نَفْسِك، وعِفَّتُك ونزاهتك، وقد أحببتُ أنْ أراكَ وأشاهِدَك وأُحْسِنَ إليك. فكتَبَ إليه[1]:

ولي كَفُّ ضِرْغامٍ أُدِلُّ ببَطْشِها ... وأَشْرِي بها بينَ الوَرَى وأَبيعُ
وكلُّ ملوكِ الأَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَها ... وفي وَسْطِها لِلْمُجْدِبينَ رَبيعُ
أأَجْعَلُها تحتَ الرَّحَى ثم أبتغي ... خلاصاً لها إنِّي إذاً لرقيعُ
وما أنا إلا المِسْكُ في كلِّ بُقْعةٍ ... يَضُوعُ وأمَّا عِنْدَكُمْ فَيَضِيْعُ[2]

وكانت وفاته في جمادى الأولى بمكة.

وفيها توفي أقباش بن عبد الله النَّاصري[3].

---

(١) قال التقي الفاسي في «العقد الثمين»: ٧/٥٨: وذكر ابن الجوزي في كتاب «الأذكياء» ما يقتضي أن بعض هذه الأبيات لغير قتادة.
قلت: انظر «الأذكياء» ص ٤٥.

(٢) ذكر في هامش الأصل بخط مغاير الأبيات برواية أخرى، وفيها زيادة بيت:

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزةٌ ... ولو انني أعرى بها وأجوعُ
ولي كفُّ ضِرْغامٍ إذا ما بطشتها ... بها أشتري يوم الوغى وأبيعُ
معوَّدة لثم الملوك لظهرها ... وفي بطنها للمجدبين ربيعُ
أأتركها تحت الرِّهان وأبتغي ... لها مخرجاً إني إذاً لرقيعُ
وما أنا إلا المِسْكُ في غير أرضكم ... أضوعُ وأما عندكم فأضيعُ

(٣) له ترجمة في الكامل: ١٢/٤٠١، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، تاريخ الإسلام (ت٤٣٨، وفيات سنة ٦١٧ هـ)، الوافي بالوفيات: ٩/٣٠٣، النجوم الزاهرة: ٦/٢٤٩.

كان مملوكاً للخليفة النَّاصر بن المستضيء، اشتراه وهو ابنُ خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار، ولم يكن بالعراق أجمل صورةً منه، ثم قَرَّبه الخليفة ولم يكن يفارقه. فلمَّا كَبِرَ ولَّاه إمرة الحاجِّ، وكان عاقلاً متواضعاً محبوباً إلى القلوب، وحَجَّ في هذه السنة ومعه خِلَعٌ وتقليدٌ من الخليفة لحسن بنِ قَتَادة، وكان قتادة قد مات كما ذكرنا، فلمَّا وصل أقباش إلى عرفات جاءه راجحُ بنُ قتادة أخو حسن، وسأله أنْ يوليه إمارة مكَّة، وقال: أنا أكبرُ ولدِ قَتَادة. فلم يُجِبْه، وظَنَّ حَسَن أنَّ أقباش قد ولاه، فأغلقَ أبوابَ مكَّة، وجاء أقباش، فنزل بعد أيامٍ مِنىً بالشُّبيكة، ووقعتِ الفتنةُ بين حسن وأخيه، ومَنَعَ حسنٌ النَّاسَ من الدُّخول إلى مَكَّة، فركب أقباش ليسكِّن الفِتْنة، ويُصْلِحَ بين الأخوين، فخرج عبيدُ مكَّة وأصحابُ حسن من بابِ المُعلَّى يقاتلونه، فقال: ما قَصْدي القتال. فلم يلتفتوا إليه، وانهزمَ أصحابه، وبقي وحدَه، وجاء عبدٌ، فَعَرْقَبَ فرسَه، فوقعَ إلى الأرض، فقتلوه، وحملوا رأسه إلى حسن بن قتادة على رُمْحٍ، فنصبه بالمسعى عند دار العَبَّاس، ثم رُدَّ إلى جسده، ودفن بالمُعلَّى، وأراد حسن نَهْبَ
١٢٤ الحاجِّ العراقي، فمنعه أميرُ حاجِّ الشَّام المبارز، وخوَّفه من الأخوين الكامل والمعظم ملكي مِصْر والشَّام، فأجابه، وكفَّ عن ذلك، ووصل الخبر إلى بغداد، فحزن الخليفةُ حُزْناً عظيماً، ولم يخرج الموكب للقاء الحُجَّاج. وأُدخل الكوس والعَلَم في الليل، وكان قَتْلُهُ سادسَ عشر ذي الحِجَّة.

قلت: وكان في حاجِّ الشَّام في هذه السنة شيخُنا فخر الدين أبو منصور ابن عساكر، فأخبرني بعضُ الحجاج في ذلك العام أنَّ حسن بن قتادة أمير مكة جاء إليه، وهو نازِلٌ داخلَ مكة، فقال له: قد أُخبرتُ أنك خيرُ أهلِ الشَّام، فأريد أن تصير معي إلى داري، فلعل ببركتك تزول هذه الشِّدَّة عنا. فصار معه إلى داره مع جماعةٍ من الدمشقيين، فأكلوا شيئاً، فما استتمَّ خروجُهم حتى قُتِلَ أقباش، وزال ذلك الاستيحاش.

وفيها ماتَ الوزير ناصر بن مَهْدِي[١] الذي كان وزيرَ الخليفة ببغداد، وقُبِضَ عليه كما ذكرنا في سنة أربع وست مئة[٢]، واعتقل بدار طاشْتِكين، وبها مات في جُمادى الأُولى، وفُتِحَ له جامع القَصْر، ومشى بين يديه أربابُ الدَّولة، ودفن بمقبرة موسى بن جعفر، وكان جبَّاراً قاسياً، وكان يدَّعي أنه شريفٌ عَلَوي، وقد طُعِنَ في نَسَبه.

وفيها توفي الملكُ المنصور، صاحبُ حماة، واسمه محمد بن تقي الدِّين عمر بن شاهنشاه بن أيوب[٣].

وكان شجاعاً، محبّاً للعلماء والفُضَلاء، وكان عنده جماعةٌ منهم لهم الرَّواتب، وصنَّف كتاباً سماه «المضمار»[٤] جَمَعَ فيه جُمْلةً من التواريخ، وأسامي مَنْ وَرَدَ عليه وأقام عنده في عشر مجلدات، وكان حَفِظَ المسلمين لمَّا هَجَمَ الفرنجُ حماة في سنة [إحدى وست مئة][٥]، ووقف وثبت.

وكانت وفاته بحماة في شَوَّال، ودفن عند أبيه، وقام بعده ولده الأكبر

---

(١) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٤٠٠، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ١٢، مفرج الكروب: ٤/ ٩١، تاريخ الإسلام (ت ٥٠٠، وفيات سنة ٦١٧ هـ)، شذرات الذهب: ٥/ ٧٨.

(٢) انظر ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٣) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ٣٠، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٥٧، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٢٥ ـ ١٢٦، مفرج الكروب: ٤/ ٧٧ ـ ٨٦، تاريخ الإسلام (ت ٤٨٨، وفيات سنة ٦١٧ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧، العبر للذهبي: ٥/ ٧١، فوات الوفيات: ٤/ ١٢ ـ ١٣، الوافي بالوفيات: ٤/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠، السلوك للمقريزي: ج١/ ق١/ ٢٤١، شفاء القلوب: ٣٣٧ ـ ٣٣٩، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٥٠، شذرات الذهب: ٥/ ٧٧ ـ ٧٨، ترويح القلوب: ٤٥.

(٤) هو «مضمار الحقائق وسر الخلائق» نشرت منه قطعة فيها حوادث سنوات (٥٧٥ ـ ٥٨٢). بالقاهرة سنة ١٩٦٨ م، بتحقيق د. حسن حبشي.

(٥) ما بين حاصرتين من (س)، وانظر ص ١٦٥ من هذا الجزء.

النَّاصر قَلِيْج رسلان، ثم أخذ الكامِلُ منه حماة وأعطاها لأخيه المُظَفَّر بن المنصور، واعتقل قليج رسلان في الجُبِّ بمصر، فمات به على أقبح حالٍ.

وفيها توفي صاحِبُ آمِد الملكُ الصَّالح، ناصر الدِّين، محمود بن محمد بن قرا رسلان بن أُرْتُق[1].

وكان شجاعاً، عاقلاً، جَوَاداً، محبّاً للعلماء، وكان الأشرف بن العادل يُحِبُّه، وجاء غير مرَّة إلى خدمة الأشرف إلى دُنَيْسَر وغيرِها، ومات بآمِد في صَفَر، وقام بعده ولدُه المسعود، وكان بخيلاً فاسقاً؛ وهو الذي أخذ منه الكامل آمِد، وحَمَلَه إلى مِصْر، فحبسه في الجُبِّ مُدَّة، ثم أطلقه، فمضى إلى التَّاتار ومعه أموالٌ، فأُخذت[2].

وفيها توفي أبو عبد الله بن الخِيَاري[3]، واسمه الحسين بن أحمد بن الحسين، من أهل باب البَصْرة.

---

(١) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٤١٢، ومرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ٩١، مفرج الكروب: ٤/ ١٠٧، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٣٠، تاريخ الإسلام (ت٤٩٥، ٥٧٨، وفيات سنة ٦١٧، ٦١٨ هـ)، الوافي بالوفيات: ٢٥/ ٢٠٦، السلوك للمقريزي: ج١/ ق١/ ٢٤٨.

وقد اختلف في سنة وفاته، فذكرها في هذه السنة سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان، وتابعه أبو شامة، والذهبي، وقال: وقيل توفي سنة ٦١٨ هـ، وهو ما ذهب إليه أبو الفداء في «المختصر»، وابن واصل في «مفرج الكروب»، والمقريزي في «السلوك». أما ابن الأثير في «الكامل» والمنذري في «التكملة»، فذكروا أنها كانت سنة (٦١٩ هـ).

(٢) في (ك) و(ع) و(س) زيادة من قارئ الكتاب، قال: قلت: ذكر الحافظ زكي الدين بن عبد العظيم المنذري رحمه الله تعالى في كتاب «الوفيات» أن صاحب آمد المذكور توفي سنة تسع عشرة وست مئة، وهو الصحيح، وقد تصحف على صاحب هذا التاريخ: سبع عشرة من تسع عشرة، والله أعلم، ولقد رأيت بخط الشيخ زكي الدين أيضاً من كتاب «الفوائد السفرية» أن الملك المسعود سلمان بن محمد، وهو أخو الصالح المذكور كان متولي آمد، وسقط من سطح، فمات سنة ست وتسعين وخمس مئة، وتولى مكانه أخوه الصالح محمود إلى أن مات.

قلت: وهذا القارئ ربما كان هو صاحب الزيادات التي ترد في هذه النسخ، والله أعلم.

(٣) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ٢٤ ـ ٢٥، تاريخ =

ولد سنة خمسٍ وثلاثين وخمس مئة، وسَمِعَ الحديث، وكان حُفَظةً للحكاياتِ والأشعار والمُلَح.

قال أبو المُظَفَّر: وكان يتردَّد إلى جَدِّي، ويُعْجِبُهُ كلامُه، وسمعه يوماً يُحكى له أنَّ ابنَ عقيل سُئِلَ، فقيل له: إنَّ الحمار يبرد له[1] في السنة في ليلةٍ واحدة، فإنما هي هذه الليلة؟ فقال ابنُ عقيل: ما يعرف هذه الليلة إلا مَنْ قد كان حماراً[2].

قال: ودخَلَ رجلٌ إلى الكَرْخ، فلقيته امرأةٌ، فقالتْ له: أبو بكر، كيف ١٢٥
أنتَ؟ فقال: أهلاً يا عائشة. قالتْ: فأنا اسمي عائشة! قال: فأقتل أنا وَحْدِي!

وكانت وفاته في شهر رمضان، سمع شُهْدة وطبقتها، وكان ثِقَةً[3].

وفيها توفي شيخ الشيوخ، صدرُ الدِّين، أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدِّين عمر بن حَمُّوية[4].

والد أولاد شيخ الشُّيوخ الذين اشتهروا بالإمرة والوزَارة بمِصْر في أيَّام العادلِ أبي بكر بن أيوب، وابنه الكامل محمد وذُرِّيَّته، وكان أبوه عمر قد ولَّاه نورُ الدِّين بن زَنْكي ـ رحمه الله ـ خوانك الشَّام، وكان يحترمه ويحبه، وماتَ

= الإسلام (ت ٤٤٧، وفيات سنة ٦١٧ هـ)، المختصر المحتاج إليه: ٢/ ٣٣ ـ ٣٤، توضيح المشتبه: ٢/ ٤٦٢، ٣/ ٤٧٧.

(١) تعبير عامي يعني: يصيبه البرد.

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧هـ).

(٣) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ).

(٤) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٤٠٠، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، التكملة للمنذري: ٣/ ١٥ ـ ١٦، مفرج الكروب: ٤/ ٩١، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١٢٧، تاريخ الإسلام (ت ٤٨٧، وفيات سنة ٦١٧ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ٧٩ ـ ٨٠، العبر للذهبي: ٥/ ٧٠ ـ ٧١، الوافي بالوفيات: ٤/ ٢٥٩، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ٩٦ ـ ٩٧، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٧هـ)، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٥١، شذرات الذهب: ٥/ ٧٧.

في سنة سبعٍ وسبعين وخمس مئة. وصدر الدِّين بدمشق عند أبيه، فولاه صلاح الدين المشيخة مكان أبيه، وزوَّجه الشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري ابنته، فأَوْلَدَها ابنَه شمسَ الدين ـ توفي قديماً ـ ثم تزوَّج ابنةَ[1] ابنِ أبي عَصْرُون، وأَوْلَدَها أولادَه الأربعة المشهورين: عماد الدين عمر، وفخر الدِّين يوسف، وكمال الدين أحمد، ومعين الدِّين حَسَن، وسيأتي ذِكْرُ كلٍّ منهم.

وكان صدرُ الدِّين قد ناب عن القطب النَّيسابوري في التدريس بالزَّاوية الغربية بجامع دمشق، وبمدرسة جاروخ، وانتفع بصُحْبته.

وكان قد تفقَّه في بلاد العجم، ثم ولاه العادل بمِصْر التَّدْريس بالشَّافعي رضي الله عنه، ومشهد الحسين رضي الله عنه، والنظر في الخانقاه الكبرى بدار سعيد السُّعداء بين القَصْر ودار الوزارة.

وكان فاضلاً فقيهاً، لا يتكلَّم فيما لا يعنيه، وكانت له الحُرْمة الوافرة عند العادل بن أيوب وأولاده، ولما استولى الفرنج على دِمْياط بَعَثَه الكامل إلى الخليفة النَّاصر يستنجده على الفرنج، فمرض بين حَرَّان والمَوْصِل، ووَصَلَ إلى المَوْصِل في منتصف جُمادى الآخرة، فتوفِّي بها بعِلَّة الدَّرَب في الرَّابع والعشرين منه، ودُفِنَ إلى جانب قضيب البان، وعمره ثلاث وسبعون سنة، رحمه الله تعالى.

وفيها في العَشْر الأول من ذي الحِجَّة توفي الشيخ عبد الله اليوناني، أسدُ الشَّام[2].

أصله مِنْ قريةٍ من قُرَى بَعْلَبَكَّ يقال لها يُونين[3]، وكان صاحبَ رياضاتٍ ومجاهدات، وكراماتٍ وإشارات، وقد رأيتُهُ بجامع دمشق.

---

(١) بياض في النسخ الخطية، وفي مرآة الزمان: ابنة شهاب الدين بن أبي عصرون.

(٢) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ)، تاريخ الإسلام (ت ٤٥٢، وفيات سنة ٦١٧هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٠١ ـ ١٠٣، العبر للذهبي: ٥/ ٦٧ ـ ٦٨، الوافي بالوفيات: ١٧/ ٣١٦، شذرات الذهب: ٥/ ٧٣ ـ ٧٥.

(٣) وينسب إليها: يونيني، كذلك.

قال سبط ابنُ الجوزي: كان لا يقومُ لأحدٍ من النَّاس تعظيماً لله تعالى، ويقول: لا ينبغي القيام إلا لله تعالى. صَحِبْتُه مُدَّة، وما كان يدَّخِرُ شيئاً، ولا يَمَسُّ بيده ديناراً ولا دِرْهماً. كان زاهداً، وَرِعاً، عفيفاً، وما لبس طول عمره سوى الثَّوب الخام وقَلَنْسُوة من جِلْد المَعْز تساوي نصف درهم، وفي الشتاء يبعثُ له بعضُ أصحابه فروةَ قرظ يَلْبَسها، ثم يُؤْثر بها في البَرْد، وكان إذا لَبِسَ الثَّوب يقول: هذا لفلان، وهذا لفلانة.

وقال لي يوماً: يا سيد، أنا أبقى أياماً في هذه الزَّاوية ـ وكنا ببعلبك ـ ما آكل شيئاً. فقلتُ له: أنتَ صاحب القَبُول، فكيف تجوع؟ فقال: لأنَّ أهلَ بَعْلبَكَّ يتَّكِلُ بعضُهم على بعض، فأجوعُ أنا.

قال: وحدَّثني عبد الصَّمد خادمه، قال: كان يأخذ وَرَقَ اللَّوْز، فَيَفْرُكُهُ ويستفُّه، وكان الملكُ الأمجد صاحبُ بعلبك يزوره ويحبُّه، وكان الشيخ يُهينه، فما قام له يوماً قط، وكان يقولُ له: يا مجيدُ، أنتَ تظلم وتفعل وتصنع، وهو يعتذر إليه.

وكان العادل قد أظهر بدمشق ضَرْبَ قراطيس سود، فقال الشيخ عبد الله: يا مسلمين، انظروا إلى هذا الشَّيخ الفاعل الصَّانع يُفْسِدُ على النَّاس معاملاتِهم. وبلغ العادل، فأبطلها.

وكان يقول لصاحبه الفقيه محمد الحنبلي[1]: فيَّ وفيك نزل: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[2] أنا من الرُّهْبان، وأنت من الأحبار.

وكان يستوحِشُ من النَّاس، فتارةً يكون بجبل لبنان، وتارة بالغسولة، وتارةً بثنيَّة العقاب، وتارةً بضمير.

---

(١) سترد ترجمته ص١٤٨ من الجزء الثاني.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

١٢٦ وكان يأتي في الشتاء إلى عيون الفاسريا، وهي ظاهر دمشق بسفح الجبل المُطِلّ على قرية دُومة لأجل سخونةِ الماء بها، وبنى له على رأس العين مسجداً صغيراً يأوي إليه، وكان الدماشقة يخرجون من دمشق إلى زيارته، قال: فحكت لي امرأةٌ صالحة، قالت: خَرَجْتُ من دمشق بعد العَصْر، فوصلتُ إلى العيون بعد العِشاء الآخرة، فتوضَّأتُ، وطلعتُ إلى زيارة الزَّاوية، وكانت ليلةً مُقْمرةً، وإذا بالسَّبُع نائمٌ على باب الزَّاوية، ورأسُهُ على عتبتها، فَيَبِسْتُ، ولم أقدر أتحرَّك، فَسَحَبْتُ رُكَبي إلى نحو القرية، فلما كان وقت السَّحَر هرول السَّبُع ومضى، وخرج الشَّيخ، فرآني، فقال: ويلكِ، وأيش كان عليكِ منه[1].

قال: وكان شجاعاً؛ لا يبالي بالرِّجال قَلُّوا أو كثروا، وكان قوسُهُ ثمانين رطلاً، وما فاتته غَزَاةٌ بالشَّام قط، وكان يتمنَّى الشهادة، ويُلْقي نفسه في المهالك؛ حكى لي عنه خادِمُهُ عبدُ الصَّمد، قال: لما دَخَلَ العادِلُ إلى بلاد الفرنج، ووصل إلى صافيتا والعُرَيمة كان الشيخ في الزاوية ببعلبك، فقال لي: يا صُمَيْد، انزل إلى الثقة عبد الله، اطلبْ لي بغلته. قال: فأحضرتُ البغلة، فركبها، وخرجتُ معه، فبتنا في يونين، وقمنا نصف الليل، فجئنا إلى المحدثة قُبيل الفجر، فقلتُ له: لا تتكلَّم ها هنا، فهذا مكمن الفرنج. قال: فرفع صوته وقال: الله أكبر. فجاوبته الجبال، فمتُّ أنا من الفَزَع، ونزل، فصلَّى الفَجْر، ورَكِبَ، وطلعتِ الشمس والطَّير لا يطير في تلك الأرض، وإذا قد لاحَ من ناحية حِصْن الأكراد طُلْبٌ أبيض، فظَنَّهم الأسبتار. فقال: الله أكبر، ما أبركك من يوم، اليوم أمضي إلى صاحبي. وساق إليهم وقد شَهَرَ سيفه، فقلتُ في نَفْسي: شيخ وتحته بَغْلَةٌ وبيده سيفٌ يسوق إلى طُلْب إفرنج! فلما كان بعد ساعة، وإذا بهم قد قربوا منا، وهم عانة حمير وحش. قال: فانكسرَ قلبه، وفترتْ هِمَّته، فقلتُ له: احمد رَبَّك، فإنَّ الله قد نَظَرَ إليك، أنت واحد تريد

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ).

تلاقي مئة على بغلة! قال: وجئنا إلى حِمْص، فجاءنا صاحِبُها أسدُ الدِّين، وقدَّم له حصاناً من خيله، فركبه، ودَخَلَ معهم، فَعَمِلَ العجائب[1].

قال أبو المظفر: وحدَّثني القاضي جمال الدين بن يعقوب، قاضي كَرَك البِقاع ببعلبك، قال: كنتُ يوماً عند الجسر الأبيض في مسجدٍ هناك وقتَ الحَرّ، وإذا بالشَّيْخ عبد الله قد جاء، فنزل نهر ثُورا يتوضَّأ، وإذا بنَصْرَاني عابر على الجسر، ومعه بغلٌ عليه حِمْلُ خمر، فَعَثَرَ البغلُ عند الجسر، وَوَقَعَ حِمْلُ الخمر، وليس في الطريق أحدٌ، فَصَعِدَ الشيخ من النهر، وصاح بي: يا فُقَيِّه، تعال. فجئتُ، فقال: عاوني. فعاونته حتى رَفَعْنا الحِمْلَ على البغل، وراح النَّصْراني. فقلتُ في نفسي: مثل هذا الشيخ يفعل كذا! ثُمَّ مشيتُ خَلْفَ البغل إلى العُقَيبة، فجاء إلى دُكَّان الخَمَّار، فَحَطَّ الحِمْلَ، وفَتَحَ الزُّقاق، وقَلَبَ لِيَكِيْلَه، وإذا به قد صار خَلاً، فقال له الخَمَّار: ويحك، هذا خَلٌّ. فبكى، وقال: والله ما كان إلا خمراً من ساعة، وإنما أنا أعرف العِلَّة. ثم رَبَطَ البغل في الخان، وعاد إلى الجبل، وكان الشيخ قد صَلَّى الظُّهْر في المسجد الذي عند الجسر، وقَعَدَ يُسَبِّح، فدخل عليه النَّصْراني، وقال: يا سيدي، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأَسْلَمَ، وصار فقيراً[2].

قال أبو المُظَفَّر: وحكى لي جماعةٌ من أهل بَعْلَبَكَّ أنه كان جالساً يوماً في زاويته، وإذا بامرأةٍ طالعة، وبين يديها دابَّةٌ تسوقها، عليها نحاسٌ وثياب، فربطتها، وجاءت إليه، فسَلَّمَتْ عليه، فقال لها: من أين أنتِ؟ قالت: نصرانية من جُبَّة المُنَيْطرة. قال: وما الذي جاء بك إلى عندي؟ قال: رأيتُ السيدة مريم في المنام فقالت: اذهبي، فاخدمي الشيخ عبد الله اليوناني إلى أن تموتي.

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ).

(٢) المصدر السالف.

قالت: فقلت لها: يا ستي، فذاك مسلم. فقالت: والك[1] صحيح إنه مسلم، ولكنْ قلبه نَصْراني. فقال لها الشيخ: أجادت مريم، ما عرفني غيرها. فأعطاها ١٢٧ بيتاً في الزَّاوية، فأقامت تخدمه ثمانية أشهر، فمرضت، فقال لها الشَّيخ: أيش تشتهين؟ فقالت: أموتُ على دين السيِّدة مريم. فقال: صيحوا بالقسيس. فجاء؛ فقال: خذ هذه إليك، وخذ قُماشها. وكان يساوي خمس مئة دِرْهم، فماتت عند القسيس. قال: وحكى بعضُ أهل بعلبك أنها ما ماتت إلا مسلمة عند الشيخ، وتصدَّقَ بما خَلَّفت[2].

قال أبو المظفر: كنتُ قد اجتمعتُ به في الشَّام من سنة ست مئة إلى سنة ثلاث وست مئة، وكان له تلميذٌ اسمه توبة، وكان من الصَّالحين الأجواد، وسافرتُ إلى العراق في سنة أربع وست مئة، وحججتُ، فلمَّا كان يوم عَرَفة صَعِدْتُ جَبَل عرفات، وإذا بالشيخ عبدِ الله قاعدٌ على الجبل مستقبلٌ الكعبة، وعليه الثَّوب الخام، وعلى رأسه القَلَنْسُوة السَّوداء، فَسَلَّمْتُ عليه، فرحَّبَ بي، وسألني عن طريقي، وقعدتُ عنده إلى قريب الغروب، ثم قلتُ له: ما تقوم نروح إلى المُزْدَلفة؟ قال: اسبقني أنتَ، فلي رِفاقٌ. فنزلتُ من الجبل، وأتيتُ المُزْدَلِفة، ووقفتُ بها، وجئتُ إلى مِنًى، فدخلتُ مسجِدَ الخَيْف، وإذا بالشيخ توبة خارجٌ من المسجد، فَسَلَّم عليَّ، فقلتُ له: أين نَزَلَ الشيخ؟ ظنّاً مني أنه قد حَجَّ معه. فقال: أيما شيخ؟ قلتُ: عبد الله. قال: خَلَّفته ببعلبك. فَفَطِنْتُ، فقلت: مبارك. ففهم، فلزم بيدي، وبكى، وقال: بالله حَدِّثني أيش معنى هذا؟ فقلتُ: رأيته البارحة على عَرَفات، وحَدَّثته الحديث. ورجعتُ أنا على بغداد، وجاء توبة إلى دمشق، وحدَّث الشيخَ عبدَ الله الحديث، فحدثني توبة قال: قال لي الشيخ: ما هو صحيح منك، فلان فتى، والفتى ما يكون غمَّازاً، فلما عُدْتُ

(١) كلمة عامية لا تزال مستعملة في الشَّام، تعني تنبيه المخاطب مع زجره، وفصيحها: ويلٌ لك.

(٢) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ).

إلى الشَّام عَتَبني الشيخ، فقلت: توبة تلميذُك. فقال: لا تَعُدْ إلى مِثْلها. كأنه كَرِهَ أَنْ يُتَحَدَّثَ له بكرامةٍ في حال حياته[1].

قال: حكى لي عبدُ الصَّمد خادِمُهُ، قال: لمَّا كان يومُ الجُمُعة في العَشْر الأول من ذي الحِجَّة نزل، فَصَلَّى الجمعة بجامع بعلبك، وهو صحيح ليس به شيءٌ، ودخَلَ الحمَّام قبل الصَّلاة، واغتسل، وكان عليه ثوبان قد سمَّاهما لامرأتين، وجاءه داود المؤذن، وكان يغسل الموتى، فقال له: ويحك يا داود، انظر كيف غداً. فما فَهِمَ داود، وقال: يا سيدي كلُّنا غداً في خِفارتك. ثم صَعِدَ الشيخ إلى المغارة، وكان قد أمر الفُقَراء أن يقطعوا صخرةً عند اللوزة التي كان ينام تحتها، ويقعد عندها، وعندها قُبِرَ، وكان في نهار الجمعة قد نَجِزَتِ الصَّخْرة، وبقي منها مقدارُ نصفِ ذِرَاع، فقال لهم: لا تطلُعُ الشَّمْسُ إلا وقد فَرَغْتُم منها. قال: وباتَ طول اللَّيل يذكُرُ أصحابَهُ ومعارفه، ويدعو لهم، ويقول: يا سيِّدي، فلانة اجتزت بها في الموضع الفلاني أعطتني شَرْبةً من الماء، فَشَرِبْتُها، وقليلَ ماءٍ، فتوضَّأتُ به، اغفِر لها. وفلان أحسنَ إليَّ، فأحسِنْ إليه. وطلع الصُّبْح، فَصَلَّى بي، وخرج إلى صخرةٍ كان يجلس عليها، فجلس عليها، وبيده سُبْحته، وقام الفقراء يتمِّمون الصَّخْرة، وطلعتِ الشَّمسُ وقد فَرَغوا منها، والشيخُ قاعِدٌ نائم، والسُّبْحة بيده، وجاء خادِمٌ من القلعة إليه في شُغْلٍ، فرآه نائماً قاعداً بحاله، فما تجاسَرَ أن يوقِظَه، فقعد ساعةً، وطال عليه، فقال: يا عبدَ الصَّمد، ما أقدر أقعد أكثر من هذا. قال: فتقدَّمْتُ إليه وقلتُ: سيِّدي سَيِّدي. فما تكلَّم، فحرَّكْتُهُ، فإذا به مَيْتٌ، وقد فرغوا من الصَّخْرة، وعَمِلُوا فيها ساعةً وهو مَيْتٌ، فارتفع الصِّياح، وكان صاحبُ بَعْلَبَكَّ في الصَّيْدِ، فأرسلوا وراءه، فجاء، فرآه على تلك الحال؛ لا وَقَعَ ولا وَقَعَتِ السُّبْحة من يده، وهو كأنَّه نائم. فقال: دعونا نبني عليه بُنْياناً وهو على حاله، ليكون أعجوبةَ الدُّنيا أنَّ

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧هـ).

الإنسان يموت، وهو قاعد ولا يتغيّر. فقالوا: اتّباع السُّنَّة أولى. وطلع داود، فَغَسَله، ودفَعَ الثَّوبين إلى المرأتين، ولما ألحدوه قال له الحفار: يا شيخ
١٢٨ عبد الله، اذكُرْ ما عاهدتنا عليه. قال: ففتح عينيه، ونظر إليَّ شَزْراً، ودفن عند اللوزة يوم السبت، وقد جاوز ثمانين سنة، رحمة الله عليه[1].

ثم دخلتْ سنةُ ثماني عشرة وست مئة

ففيها توجَّه المُعَظَّم عيسى إلى أخيه الأشرف موسى، واجتمعا على حَرَّان، وكتبَ صاحِبُ ماردين ناصر الدِّين إلى الأشرف يسأله أن يُصْعِدَ المعظم إليه، فسأله، فسار إلى ماردين، فَنَزَلَ صاحِبُها، والتقاه في دُنَيْسر، وأصعده إلى القلعة، وخَدَمه خدمةً عظيمة، وقدَّم له التُّحَف والجواهر، وتحالفا واتفقا على ما أرادا، وزوَّج المُعَظَّمُ إحدى بناته ناصِرَ الدِّين صاحب ماردين. وزوَّج ابنَ ناصرِ الدين ابنته الأُخرى، وخَلَعَ على جميع أصحابه، وأعطاهم الأموال، ورَجَعَ المُعَظَّم إلى حَرَّان.

وفيها وصلتِ الأخبارُ بوصول التَّاتار إلى كَرْماشاهان قريباً من بغداد، فانزعج الخليفة، وأمر النَّاسَ بالقنوت في الصَّلوات، وحَصَّنَ بغداد، واستخدمَ العساكر.

وفيها في جمادى الآخرة استردَّ المسلمون دِمْياط من الفرنج، وكان المُعَظَّم عيسى من أَحْرَصِ النَّاس على خلاص دِمْياط وعلى الغَزَاة، وكان مُصَافياً لأخيه الكامل، وكان أخوهما الأشرف مقصِّراً في حَقِّ الكامل، وكان مبايناً له في الباطن، فلما اجتمعتِ العساكِرُ على حَرَّان، قَطَعَ بهم المُعَظَّم الفُرَات، وسار الأشرف في آثاره، وجاء المُعَظَّم، فنزل حِمْص، ونزل الأشرف سَلَمِيَّة.

قال أبو المظفر: وكنتُ قد خرجت من دمشق إلى حِمْص لطَلَبِ الغَزَاة،

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٧ هـ).